دولة الرعاة في مصر

للمؤرخ المحقق جرجي افندي زيدان

(تابع ما في الجزء الرابع)

واذا تبيّن لنا مما مرّ ترجيح الظن بحسبان الغزاة من سكان سوريا تعيّن علينا ان نبحث في شان تلك الامة لعلنا نهتدي الى معرفتها

فان من مزاعم مانيشون ان الغزاة من الفينيقيين والحال ان الامة الفينيقية غريبة عن سوريا وقد هاجرت اليها من سواحل البحر الهندي في زمن يقارب العصر الذي كانت فيه غزوة الرعاة مصرًا وقد اختلف الباحثون في طريقهم الى الثغور السورية فذهب بعضهم بجيشهم اليها من بلادهم رأسًا وزعم آخرون انهم اجتازوا بلاد العرب ومصر ثم اتوا سوريا واختاروا ثغورها وكيف كان الامر ليس في الامكان تعيين مقرهم للغارة على مصر بعد زمن قصير من نزولهم في اوطانهم الجديدة بل ربما لم يكونوا قد نزلوا سوريا حتى يومئذٍ. فاعلم ان الفينيقيين لم يكونوا اباسل في البر حتى انهم في اثناء ازدهاء دولهم كادوا لا يقتدرون على حفظ بيضة ملكهم لقصورهم عن الذود عن حوضها برًّا وانما كان معظم قوتهم في البحر وفوق هذا كله فان الغزاة لو كانوا منهم لسماهم الاثر زاهي وليس خارو

واذا امعنا النظر في اسماء من ذُكر من القبائل التي واقعت كدرلعومر العيلامي ومحالفيه تبيّن لنا ان جميعهم كانوا من سكان جنوبي سوريا وشرقيها وان الامم النازلين في الشمال لم يحسبوا بين الناهضين لمقاومة الظافر على اننا علمنا مما رواه لنا الآثار الحديثة الظهور ان الحثيين الشماليين امة عزيزة الجانب منيعة الحوزن لا تروعها كثرة العدى ولا تخشى من الغزاة بأسًا وفي نوجاتها العيلاميون يقصدون سوريا من طريق الفرات الاعلى لنهضت الى مكافحتهم وابلت فيهم على ما ظهر من فعالها في المحاربات التي وقعت لها مع مصر وبين النهرين عقيب تلك الازمنة فالارجح اذًا ان كدرلعومر دخل سوريا من الجنوب الجنوبي وبذلك اوقاع منه سكان فلسطين فنهضوا للدفاع عن الوطن ورد غارة الغزاة فلما اعيتهم الحيلة ولم يجدوا الى دفع البلاء سبيلاً خلدوا الى الطاعة حينًا من الدهر ولعلّ في ذكر تأديبه لشعوب فلسطين دون غيرهم برهانًا على هذا الظن والاّ فمن العجب ان يُذكر بعضٌ من كل وان يحصر الذكر بساكن فلسطين ولا يتعدى الى ما فوقها مع ان القطر السوري كان عمرًا بالشعوب والقبائل وكذلك يحسب

رجوعه من جهة دمشق دليلاً على اختياره الطريق الجنوبي حذرًا من الشمالي وتجنبًا للامم القادرة النازلة فيه

واذا تدبرنا هذا نتج لنا ان القبائل التي ازدحمت عند السويس هربًا من الظافر او خوفًا من بطشه كانت جميعها من سكان فلسطين وسائر الانحاء السورية الجنوبية . وان صحَّ هذا فليس بدعًا ان يكون بين هؤلاء بعض القبائل العربية الضاربة في القفر القريب وهذا الرأي يقول به المؤرخ لانورمان الاَّ ان العلامة رولنسون ينكر عليه اكتفاءه بجبال الغزاة خليطًا من السوريين والعرب ويرى ان ذلك الجمهور لا تجتمع كلمتهم ولا يقوون على الفتح ما لم يكن بينهم قبيلة ذات شأن وفيها الزعامة والقيادة

وانا نعلم من رواية الكتاب المقدس ومما حققه الباحثون وفي صدرهم العلامة سايس ان الحثيين كانوا فريقين احدهما سائد في شمالي سوريا الى حماه وقادش وما وراءها والثاني في اقصى جنوبي فلسطين حيث مساكن العموريين واليابوسيين وزد على ذلك ان الحثيين الجنوبيين كانوا مختلطين بالعموريين اختلاطًا عظيمًا في كثير من منازلهم اعتبر ذلك بما ورد عن حبرون مثلاً فانها كانت مباءة لعنقون الحثي ولمامر العموري ونسب بناه اورشليم لليبوسيين والعموريين سواء . وعلى الاثر المصري ما يستفاد منه تخالف العموريين والحثيين في قادش اذ حسب البلدة من بلاد العموريين على ان هؤلاء اقدم عهدًا في سكن البلاد من الحثيين وقد انجدر هؤلاء من الشمال ونزلوا في البلدان العمورية واختلطوا بسكانها وهم على قلتهم سيف فلسطين كانت منعتهم باعتمادهم على عزة اخوانهم الشماليين وربما ادّى ذلك بهم الى الرئاسة في القوم فكانوا اصحاب الامر في اقتحام مصر واحتلالها

ولا غرابة في هذا فان تاريخ الحثيين يدل على مكانهم من العزة والسؤدد فكيف بهم وقد انضمَّ اليهم العموريون وهم السواد الاعظم من الساكنين في مشارق فلسطين وجبالها . وقد ايد العلامة رولنسون هذا الرأي وزاد على ادلة القوم فيه ان الغزاة لما اكتسحوا مصرًا واحتلوها نشروا بين ظهراني اهلها عبادة معبود الحثيين المخصوص بهم اريد به ست اوسوتخ وهو عبارة عن الشمس ويسمونه ايضًا ايبس ويمثلونه لابسًا قبعةً عُرفت بالحثية ولها شبه قرون وعلى بدنه جلباب قصير وفي رجليه نعالٌ عكفاد الرؤوس وفي معصمه دمالج وفي آذانه اقراط وكان يلقَّب براعي النجوم الساقطة

وحسب بعض المؤرخين ان الحثيين ضاقت بهم ارضهم في الشمال فرحلوا جنوبًا وانضم اليهم اصحابهم الذين وجدوهم في طريقهم ومن ثمَّ انحدروا جميعهم الى مصر ففتحوها

وكان الحثيون الشماليون لذلك العهد اهل المنعة والقوة واليهم تنتهي عزة دولتهم ومنعة جانبها ولم يكن في جوارهم من ينازعهم على منافع الارض فما مواطنهم فكانت الى شمالي سوريا وشرقي شماليها حيث كانت عاصمتهم كركميش على الفرات والمسافة الى مصر في معظم القطر السوري ولذلك يحول دون القول بغارة القوم امران اولها انهم لو كانوا هم الفاطمين لا تضم اليهم كثيرون من القبائل المجاورة كالحمانيين والاروادين والعرقيين والسينيين ومثالهم ولو كان هؤلاء حلفاً واحدة لما خافوا من بطش العيلاميين ولو خافوا لطمع العيلاميون في بلادهم عند ظفرهم بكنعان الجنوب وكانوا دوّخوا اقطارهم وخضدوا شوكتها ولكن كل ذلك لم يُذكر ولم يقل بوقوعه احدٌ. وثانيهما انهُ لو كان الغزاة منهم لوجب ان يكون جمهورهم كبيراً وذلك يُقلّ من عظمة دولتهم في سوريا ويخفض جناح منعتهم فيها لما يترتب على مهاجرة الاشداء منهم من النقص في عديدهم والحال انّا شهدنا دولة الحثيين باقيةً على منعتها ناهضةً بعزتها صحابة ذلك الزمن الاّ ان هذا القول لا ينفي الظن بان جماعةً من الحثيين ربما انحدروا من الصوب الشمالي واخترقوا الاطراف السورية حتى بلغوا جنوبي فلسطين واتحدوا مع الخلفة وقصدوا مصراً فوارّاً من العيلاميين او لما وقع اثر حملة هؤلاء من ازدحام الناس على المواطن ولا يصحّ بتات الحكم في ذلك حتى يُرى في تواريخ هذه الحوادث. فالدولة العيلامية ملكت بلاد الكلدان في سنة ٢٢٨٦ او سنة ٢٢٩٦ ق م وبما ان كدرلعومر كان من خلفاء الفاتحين فقد زعم بعضهم انهُ اجتاح سوريا سنة ١٩١٣ ق م الاّ ان ذلك لا يطابق ما نعم من ان غارة كدر نخونتا على بابل وافتتاحها كانت باتفاق المؤرخين سنة ٢٢٨٦ او ٢٢٩٦ ق م وزعم بيروسوس المؤرخ الكلداني القديم ان عدد ملوك العيلاميين ثمانية وان سيادتهم استمرت الى سنة ٢٠٥٢ اي مدى ٢٣٤ سنةً فاذا سلمنا بذلك خصّ كل واحد من الملوك تسع وعشرون سنةً وشهور اجلاً متوسطاً ثم ان المعروفين من الملوك المذكورين خمسة اولهم كدر نخونتا الفاتح ثم كدر لعومر ثم سنتي شين خاك وابنهُ كدر مابوك وحفيدهُ اريدسين الذي انتهت به الدولة

فاذا علمنا ذلك وان الملوك من كدر لعومر فنازلاً كانوا معروفين ظهر لنا ان الملكين المجهولين انما هما اللذان سبقاهُ على الاريكة فاذا حسب الاجل المتوسط لهما ولفاتح كدر نخونتا كان بدء تملك كدر لعومر حوالي سنة ٢٢٠٠ ق م ووقع وقت غاراته على سوريا بين ذلك الاجل و٢١٧٠ ق م

واما الزمن الذي حسبهُ المؤرخون بدء دولة الهكسوس فيطابق هذا الاجل اذ ورد في

جدول قراءة مصر المثبت في الجزء الثاني من الطبعة الجديدة من كتاب Records of the Past لجامعه العلامة سايس الانكليزي ما يؤخذ منه ان ابتداء دولة الرعاة على رأي مريت باشا واقع سنة ٢٢١٤ ق م وهو على رأي لبسيوس واقع سنة ٢١٠١ فينتج من ذلك تقارب العهدين ومن ثم فان البقعة التي اجتاز الغزاة تخوم مصر منها الا وفي شبه جزيرة سينا لم تكن حتى عصر هذه الغزوة مباءة لقوم اباسل يقوون على دخول مصر واجتياحها والشاهد على ذلك خضوعها اجمالاً متطاولة للقراعنة السالفين وبقاء ذلك على حاله مدى الدول القريبة العهد من غارة المشارقة اعتبر ذلك بما ورد عن الملكين عنخمعات الثالث والرابع من اصحاب الدولة الثانية عشرة وكيف انهما كانا يستخرجان المعادن على ما سبقت عادة اسلافهما حتى ان الاول منهما بنى في البلاد هيكلاً للربة اثور سيدة الفيروز كل هذا يثبت اغارة اولئك الغزاة على القطر ويزيد رأينا ثبوتاً في انهم دخلوا مصر ملتجئين اليها من بطش المشارقة

وروى صديقنا زيدان افندي عن غير واحد من ثقات المؤرخين ان اكبر القبائل التي حكمت مصراً كان المصريون يسمونها حيتا فان صحت رواياتهم ولا اظنها الا صحيحة فثمت انباً الصريح بتقدم الحثيين بين الغزاة تقول هذا ولا نجد فيه غباراً على رأينا ان الحثيين كانوا كل جمهرة الغزاة وانما لعلهم كانوا القوة الغالبة فيهم (١)

ورأى الغزاة عند اجتماع كلمتهم على دخول مصر ان الساعة قد حانت فتجاوزوا التخوم اليها ودخلوها من غير معارضة مذكورة الا ان مانيثو يقول فيهم انهم قوم من العاغام جاءوا مصراً من الشرق على غرة من ذويها فدخلوها وظفروا بفتحها من غير حرب انتهى . لكن هذه العبارة لا تنطبق على الواقع تماماً لانه يستحيل على ملكي طيبة وكسيوس ان يسلما تاجيهما بدون ممانعة ولكنهما ربما لم يجدا للحرب مجالاً فكان قصيراً غير ذي بال ولذلك لم يحسبه المؤرخون دفاعاً وما عتم ان دانت البلاد لهم فاقاموا ودانيها فدمروا عمرانها ودكوا مشيدها وعاثوا فيها قتلاً واسترقاقاً ونهباً ولكنهم لم تطمح ابصارهم الى ما وراء منف بل اقروا الملوك ثيبة الجبل على الغارب واكتفوا بما اغتنموا من السيادة في المصرين العليا والسفلى

قيل ان الرعاة كانوا في بدء امرهم يعاملون المصريين بالعنف والقسوة ثم تبدل الحال بهم

---

(١) (المقتطف) قال الدكتور بدج مدير التحف المصرية والاشورية في المتحف البريطاني ومؤلف اكبر الثقات الآن في الآثار المصرية ان كلمة هكسوس مأخوذة من حكو شعسو ومعناها امراء الشعسو . وان الشعسو قبائل معادية لمصر كانت تقطن الاقفار التي الى الشمال الشرقي من القطر المصري فهم غير الحثيين الذين يعبرون في الآثار المصرية حيتا ويسمى ملكهم حك حيتا

وصاروا الى مجاهرته بالمعاصي عن علم ذلك قد قصد الملكوس سيف الدين برقوق ان يخمد شوكة المصريين ويخفف من علو كلمتهم لانهم اي المصريين كانوا يزدرون برقوق الانعام ويجترونهم كثيراً فلما رأى برقوق ان الحكم لا يزدروا قوماً يستطاع ان الغلبة عليهم . وبوق هذا فانه كان بين الغالب والمغلوب تباين في العقيدة لان الملكوس كان من الموحدين فعلاً بآثار الشارفة ما المصريون فكانوا من القائلين بتعدد الاديان وبذلك ناصب الفاتحون الدين المصري العداء وشرعوا يفشون الهيا كل فيسلبونه حليها ويميلون الى كهانها بما يستطيعون اليه سبيلاً من الشر والاهانة حتى ضاقت بهم اوطانهم على رحبها واذ كانوا حملة العلم القديم حسب الاعتداد عليهم لماماً بشان المعارف حتى كاد التاريخ تتداعى اركانه لخلو الوطاب من استاده فلا بضعة اوراق من ايردي حفظتها بطون الاهرام وتخابئ المقابر ولم تصل اليها يد الخراب

وكان ما جرّ الفتح وراءه من الوبل لم يكن طويل الامد لان التمدن المصري عاد فنهض من كبوته وتجددت فيه روح الحمية والاهتمام فوثب الدين غلبوه فانتبهوه وصاروا من اخدانه ورجعت الصناعة الى شانها الاول من الاتقان

ومما اثر يوسيفوس بن كريون عن مانيتون سات او ساتيس لم يكن قائد الغزاة الذين اجتاحوا مصراً ولكنهم لما رسخت قدمهم فيها ملكوه عليهم فاتخذ منف عاصمة وعززها وسائر مدائن القطر بالحصون والحامية ورتب الجزى على المصريين وجعل معظم العسكر وعدتهم مئتان واربعون الفاً في مدينة اواريس بعد ان رممها ووسعها واتخذ رابط فيها ليقوى على صد غارة الاشوريين على الدولة الناشئة يومئذٍ في ما بين النهرين اذ كانت الدولة الكلدية قائمة هنالك حتى ذلك الحين على ان من اهم النظريات في هاته الرواية ثبتاً لزعمنا ان سبب الغارة على مصر تغلب الهيلاميين على الكلدان ذلك لان الخوف منهم ظل شاغلاً للتهم حتى في مراتعهم الخصيبة على ضفاف النيل فجعلوا الحماة في المعاقل يذودون عن حوض البلاد اذ دهمتها جيوش الغالبين

وكان من اهم مشاغل الملك ساتيس ان يجيشهم كل سنة فيدخر لهم المؤن وسائر الحاجيات ويصرف لهم الرواتب ويقترع في شؤونهم جملةً ثم يجعلهم يتمرنون على الحرب تحت بصره حتى يتخيل الناظر اليهم انهم على اقدم الحرب فيقع من ذلك الخوف والفزع في قلوب اهل الجوار

واعقب ساتيس بضعة من الملوك لسنا على يقين من شؤونهم الا ان اخرهم على رأي هو ابوفس او يبي وانه تسلطن في مصر زهاء ثلاثين عاماً مشاركاً سلفه ارخلس ثم انفرد

بالسلطنة فاستقرَّ في اواريس كأنهُ اراد لها المزيد من العزة والمنعة فكانت تحمل اليهِ جباية المصريين

واذدهرت مملكة ثيبة ايام ملوكها الوطنيين من آل تع الذين كانوا يلقبون براسكن وكانوا يقيمون تحت الجزية لملوك الرعاة حتى انضت اريكتهم لراسكن الثالث (تابع في اسمهِ مذهب بروكش) وعلى اريكة الرعاة الفرعون ابيبي فلم يرَ هذا الفرعون من نفسهِ ارتياحاً للامير الوطني فالتمس سبباً لانتقامهِ ذلك انهُ بعث الى ثيبة سفارةً يطلب بها ان يتخلى القوم عن العبادة الوطنية وينتصروا على عبادة امون رع يحسبوهُ تمثالاً معبودهم سوتخ فلما سمع الامير الوطني هذا الطلب رفضهُ لاستحالة الارتضاء بهِ فادى ذلك الى امتشاق الحسام ووقع الحرب ثم اصطلح الفريقان ولم يكشف التاريخ شيئاً من نتائج القتال غير ما تخيناهُ من ان راسكن نال نجاحاً اكسبهُ لقب خان اي الظافر غير انهُ لم يكن ذلك الظفر عظيماً بحيث يؤثر في الدولة الكبرى وانما اكتفى راسكين بما نال من الاعتبار والاستقلال عن الطاعة للغرباء وكسر شيء من غلوائهم

ولا يخفاه ان مرور الزمن وقعود الكماة الذين غلبوا مصراً عن الحرب كل هذا الاجل اي نحواً من جيلين على قولٍ انما يذهب من الغالبين ذلك الروح الحربي ويجعلهم في امنة المغلوبين على بلادهم وعزهم ولذلك لم يكن القوم في اواخر ايامهم امثال اجدادهم الاباسل الذين فتحوا مصراً ودوخوا حصونها فسهلت لديهم الغلبة عليها

واعتلى ذلك تملك كامس على عرش ثيبة فاستمر على خطة سلفهِ من خشد شوكة الرعاة حتى تداعت قواهم فشرعوا يبارحون من الديار المصرية حصناً بعد آخر حتى بلغوا اواريس عند التخوم السورية وغدتهم على رأي يوسيفوس ٣٤٠ الفاً فاحس المصريون ان ظل الغزاة قد تقلص عن ارض ابائهم وان ملوكهم الوطنيين نهضوا لاخراج الغرباء فلم يبقَ لهم الاَّ اواريس فانتعشوا ونهضوا رجلاً واحداً ونزلوا على الغرباء كالبلاء الماحق وهم في ٤٨٠ الفاً على قولٍ وحطوا على المدينة فحصروها براً وبحراً قلت بحراً والمراد بهِ انهم نزلوا المراكب في الترع التي كان يجري ماء النيل فيها الى جوار المدينة وبالبحيرة القريبة وبعد حرب تربعد طال القراض اخذت المدينة

وانعطفت الاريكة المصرية باخامس فشرع يتم ما بدأ بهِ سلفهُ وخلق بالفارين صوب فلسطين وامتلك بلدةً من بلدانهم اسمها شاروهانا يحسبها العلاَّمة رولنسن المدينة المذكورة في الكتاب المقدس. وفحاوى القول ان غزاة مصر لما غُلبوا عليها لجأوا الى البلاد التي كانت

منبت اسلافهم لانهُ لا يخالجهم انهم يخشون الى القطر السوري لو كانوا من غير السوريين فاهيك انهم ذاقوا الامرين من الاغتراب في مصر عقيب تسوّدهم وصولتهم طويلاً فلا يعودون الى اغتراب آخر يتضمنهُ في خصام ونزاع

ولما خلا الملك للمصريين ورسخت قدمهم فيهِ اتجهت سياستهم للاغارة على سوريا خصوصاً لشوكة سكانها وثأراً لمصر منهم فبدأت منذ يومئذٍ حروب الفراعنة فيها وغاراتهم المتتابعة عليها

كل هذا يؤيد القول بان الرعاة من السوريين . فسبحان من بيدهِ الملك يؤتيهِ من يشاء وهو العزيز الحكيم

الاستعداد للحرب

مَن اطّلع على احوال الممالك الاوربية وما عندها من الجيوش والاساطيل وما تنفق عليها من الاموال قال انها انما تتأهّب لحرب عامّة تذهب النفوس والاموال وتزعزع اساس الحضارة وتقوّض معالم العمران . ولكن مرّت السنون منذ عشرين عاماً الى الآن وهذا الاستعداد للحرب على قدم وساق ولا حرب الاّ بين اقل الدول استعداداً لها

واكثر الدول الاوربية تنفق على معدّات القتال انكلترا وفرنسا وروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا وقد تضاعفت نفقاتها هذه منذ ثلاثين عاماً الى الآن كما يظهر من الجدول التالي وفيهِ نفقات الجيوش والاساطيل عام ١٨٦٨ وعام ١٨٩٨ على ما في ميزانيات هذه الدول

اسم المملكة	سنة ١٨٦٨	سنة ١٨٩٨
انكلترا	٢٦ مليون جنيه	٤٠ مليون جنيه
فرنسا	٢٠ » »	٣٦ » »
روسيا	١٦ » »	٥٤ » »
المانيا	١١ » »	٢٧ » »
النمسا	٠٨ » »	١٥ ½ » »
ايطاليا	٠٨ » »	١٣ » »
والجملة	٨٩	١٨٥

وعليهِ زادت نفقات هذه الدول السنوية على جيوشها واساطيلها من ٨٩ مليون جنيه الى ١٨٥ مليون جنيه واكثر الزيادة في روسيا والمانيا